دراسة وتوثيق الثقافة الشعبية في أدب البردوني (٢ - ٢)

كان الاستاذ البردوني يقول إن أحب أنواع الكتابة لديه هي الكتابة في الثقافة الشعبية

الحارث بن الفضل

ما إن كلفت بإعداد هذه الورقة إلا ووثبت ولم تكن لي قبلها ياليلُ وثبة، أحسست في كل الخلايا الجائعات صَجيج رغبة فرحا بخصوبة هذا المجال ومعتقدا أن المصادر ستكون أكبر من أن تقرأ ولكني عدت منكسرا كالموجة الحمقى التي تغريها الرياح بالسباق فتسبقها ولكنها تصطدم بالصخور فتعود منكسرة إلى الشاطئ لاتستفيد من تجربتها الأولى فتعود مرة أخرى وبقي هذا السؤال يطاردني: ماهي الجهود المبذولة في توثيق ودراسة الثقافة الشعبية؟

فوصلت إلى قناعة بأن الجهود المبذولة في دراسة وتوثيق الثقافة الشعبية لا ترقى إلى مستوى الموروث الهائل في هذا المجال المكتظ بالكثير والكثير فكل أرض تشق وكل حبة تزرع وكل ثمرة تحصد وكل عرس يقام وكل جنازة تحمل وكل زي يلبس وكل أغنام ترعى وكل ذرة رمل وورقة شجرة وقطرة مطر ونهدة عصفور وشوق حبيبين وحروب تدار وو.. إلى آخره بكل مفاصل الحياة اليومية وتفاصيلها إلا وللثقافة الشعبية إسهام كبير في توثيق اللحظة والتغني بها وتحويلها شعرا أو نثرا إلى أي نوع من أنواع التوثيق في مهجل أو مهيد أو زامل أو أغنية أو أقصوصة أو أسطورة أو حكاية تحفظها الصدور وتتناقلها الألسن. فثقافتنا الشعبية اليمنية ثقافة ممتدة من أقصى الزمن إلى أقصاه، قديمة قدم الضوء، وحديثة حداثة النسيم تفترش الصحراء وتلتحف البحر وتقبلُ نهود السحابة تتنوع بتنوع التضاريس وتتشكل بتشكل اللهجات وتتقلب حسب تقلبات الطقس، إننا نستيقظ عليها كما ننام أيضا ونتناولها وجبة إضافية إلى وجباتنا اليومية.

أحمد عبدالمعطي حجازي:

ودي أعاد الروح للشعر والحياة الثقافية بشكل عام

– وفي قصيدة بعنوان (بطاقة موظف.. متقاعد) يقول في البيت الثالث عشر:
وامشي أتمتم بالحوقلات
أدندن: (ماذا الجفا ياغزيل)؟ مطلع أغنية كانت شهيرة
والبيت الذي يليه مباشرة يقول :
وأروي من المنفلوطي سطورا
وأصرخ: ياعيل عيلوه عيل
(ياعيل عيلوه عيل) عبارة ريفية تدل على التذمر الشديد وعلى نفاد الصبر وقد اكتسبت بعدا ثوريا واجتماعيا في أشعار القردعي.. والمقدشية.
والعيل في اصطلاح الريف: نوع من الطيور البيضاء
وفي البيت السادس عشر يقول:
وكأنت تراني بيوت القليس
وتعجب كيف ترقى (رميل)
والقليس: من الأحياء القديمة الفقيرة بصنعاء، و (رميل): لقب تهكمي يطلقه المدنيون سخرية بغباء الفلاح.
وفي البيت التاسع عشر يقول:
تزوجت (جانين)، قلت اذهبي
إلى النار، يابنت (ناجي ثعيل)
و(ناجي ثعيل) من الأسماء الشائعة في الطبقات الدنيا.
وأما في ديوانه الثامن (ترجمة، رملية.. لاعراس الغبار) فمن بدايته تداهمنا قصيدة (خاتمة ثورتين)والتي مطلعها:
ياسبتمبر، قل لاكتوبر
كل منا أمسي في قبر
بين القبرين، نحو الشرين
أترى الحفار أطال الشبر؟
وهذه القصيدة كما ينوه الأستاذ في الهامش على إيقاع الهزج الشعبي بحيث عكس نفسه حتى على بناء النص الشعري وإطاره الخارجي. كما أنه من الملاحظ على دواوين المجموعة الثانية بالإضافة إلى كثرة توظيف الثقافة الشعبية كثرة استخدام المفردات الشعبية في مواضع تثري الفكرة الشعرية للبيت الشعري بل للنص الشعري برمته أما توظيف الثقافة الشعبية في دواوين المجموعة الثانية فإنه ناتج عن وعي متناه أكسب المادة الموظفة بعد إضافيا إلى بعدها الأول الإنساني أو الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي وهذا ماجعل النصوص أكثر إشراقا وتميزا وسوف نتطرق في عمل قادم إلى وعي البردوني باستخدام الثقافة الشعبية وكيف أكسبها بعدا آخر إلى بعدها الذي خلقت من أجله وتقنية التوظيف وجمالياته وكيف وظف أسماء المناطق واستفاد من اللهجات الشعبية في إثراء النص وجعله أكثر بساطة وأعمق أثرا وأجمل أناقة وأكثر اقتصادا لغويا. وفي قصيدة (أمين.. سر الزوابع) يقول:
هل أصفر الآن؟ ياتي الجن أسلمهم
نفسي ، لكي ياكلوني مثل من أكلوا
وهنا يشير إلى أنه من الخرافات الشعبية أن الذي يصفر في القفر أو تحت الظلام يجلب عليه العفاريت
وفي قصيدة (من آخر الكأس) يقول:
هنا أحشد (القطران) من أين اقبلت؟
عفاريت كل البيد أدهى وأعندا
أمد لهم (شمس المعارف) كلها
يصبون لي من فلم (لورنس) مسردا
أحث «ابن علوان» البدار ابن بفرس
واستنفر الشيخين (عمرا) و(اسعدا)
(القطران): هو دهان خشبي يطبخه مختبرون من أعواد معروفة ويستخدمونه دهانا للجرب ولقروح جلود الإبل، وعندما تروج الإشاعات انتشار العفاريت يلجأ الناس إلى هذا السائل لدهن الأبواب، وأظلاف المواشي وأكثر مايحدث هذا في سنوات القحط ولعل هذه عادة يمنية.
أما (شمس المعارف) فهو كتاب يكتشف من خلاله المشعوذون مس الجان والسيطرة عليهم وإخراجهم ممن تقمصوا من الناس، وأما (فلم لورنس) فهو إشارة إلى حداثة أسلوب الغزو، كما أن الشعوذة إشارة إلى بداية أسلوب الدقاع وأما (احمد بن علوان) فقد سبقت الإشارة إليه سابقا وأما (عمر) و (أسعد) فهما عمرو بن معدي يكرب وأسعد الكامل من شجعان التاريخ اليمني.
وفي قصيدة (أطوار بحاثة نقوش) يقول:
أراكم حفاة: نعم كالنمور
لأهل الغنى، لبس تلك «المسود»
كل امرأة شريرة وعلى كل سنة قحط أو كوارث.
(بوادي بنا) يتكرون اسمها
وفي الجوف يدعونها !(عقنفود)
وفي قصيدته (ليلة من طراز هذا الزمان) يقول:
مشت لا استموات «سوسو»
عدت لا استنبحت «دعبوس»
ولا نادت زوايا البيت
يا (باهوت) يا (قدوس)
وسوسو: الاسم العائلي للهرة في بعض البيوت
ودعبوس : من أسامي الكلاب عند رعاة الأغنام.
وياهوت: لقب الشيخ الاسطوري احمد بن علوان الذي يستغاث به عند الشدائد في اليمن.
فهل بقي شيء من مفردات الثقافة الشعبية لم يوثق له البردوني إن كان حتى اسم الكلب عند الرعاة لم يسلم من توثيقه؟ وهذا من أدق تفاصيل الثقافة الشعبية .
وفي قصيدة «قراءة في كف النهر الزمني» يقول:
عفوا: إني عفريت
عرّاف واسمي (يحموم)
ويحموم: اسم أحد شيوخ الجان في الخرافة الشعبية باليمن، وعلى اسمه سمى (تابط شرا) حصانه كما أنه كان اسم حصان النعمان بن المنذر.
وفي قصيدته (صعلوك من هذا العصر) يقول:
ما طالعي ؟ كانت تقول أمي:
مكتوبة على ابني «الشقابة»
والشقابة لفظة عامية وهي الشر والتعاسة.
أما القلابة : وهي أكلة قول مخلوط بالبصل والبيض فإنه يشير إليها في هذا البيت:
يحكون عنه : أنه فقير
ونادرا ما يأكل القلابه
وفي هذا البيت يوثق البردوني للوجبات الشعبية ففقير في صدر البيت توحي بشعبية الوجبة في عجزه فالفقراء أقرب إلى الوجبات الشعبية من غيرهم.
وفي قصيدة (تحولات يزيد بن مفرغ الحميري) يقول في هذا البيت:
أراني الآن رابية تغني
(ألا وأليل دان الليل داني)
(ألا واليل دان الليل داني) : لازمة غنائية في أكثر الأغنيات اليمنية.
وفي قصيدة (حوار فوق أرض الزلازل) يقول:
أصبحت أعي أني غيري
هل – فأر السد– سوى فاري؟
الفار : إشارة إلى الأسطورة التي حكت أن فارا تسبب في هدم سد مأرب. وفي قصيدة (رسالة إلى صديق في قبره) وهي آخر قصائده في هذا الديوان يقول:
(وابي هادي) أتدري لم يعد
أعزبا، قد زوجوه (أم هادي)
أبي هادي: هو كنية للفقر صارت له اسما ويقال : أنه إشارة إلى رجل كان يسميه الناس في صنعاء أبي هادي وكان على شدة فقره يحاول الاتصال بالأغنياء ويتنبل في حكاياته وحركاته مثلهم وكان أعزبا طول عمره ، وأم هادي في آخر البيت إشارة إلى التزاوج بين فقيرين أحدهما يكابد شدة الفقر وثانيهما يكابد الغناء الفقير.
وأما في ديوانه التاسع (كائنات الشوق الآخر) ففي القصيدة التي تحمل اسم الديوان يقول:
وكنت تشير «بالكاذي»
«وبالورس الغويداني»
والكاذي: نبات زكي الرائحة : والورس : من شجر البهارات تستخلص منه صبغة صفراء للثياب ووجوه النساء وكان أجود أنواعه في اليمن.
وفي نفس القصيدة وبعد هذا البيت ببيتين يقول:
تنث الشدو (سعديا)
وأحيانا (قمنداني)
وسعديا: نسبة إلى مطرب في مطلع القرن العشرين اسمه : سعد عبدالله الذي أشاعت الحكايات الشعبية الأعاجيب عن حسن غنائه.
قمنداني: نسبة إلى المطرب الشاعر اللحجي القمندان الشهير بشعره الغنائي وغنائه الشعري.
وفي قصيدة (فنقلة النار والغموض) يقول:
أبدو (علي مقلي) بدون
إمامة وبدون مقلي
وفي قصيدة (قراء النجوم) يقول :
ثم تأتي تسع سمان ولكن
بين (سعدين) حولهن اختلاف
سعدين: نجم سعد السعود بشير الخير ونجم سعد الذابح نذير الشؤم وقد جاء التطير والتشاؤم من صفتيهما.
وفي قصيدة (أشواق) يقول:
يارأزقي السر هل تشكو الظما؟
أشكو إلى من عنده أرزاقي
الرازقي : أحد أصناف العنب الجيد اشتهرت به منطقة (السر) في بني حشيش شمال العاصمة صنعاء.
وفي قصيدة (المقياس) يقول:
كيف متم بين ذياك وذا
هَل ورثتم كلب (شوكان) و (راسه)
شوكان وراسه: قريتان متجاورتان من منطقتي عنس والحدا في المناطق الوسطى في اليمن ويحكى أنه كان هناك كلب يسمى شيمر ، يستنبطُ حصول الغداء في قرية شوكان فيذهب إلى قرية راسه ويصلها بعد فوات الغداء، فيستنبطُ العشاء في راسه فيدخل إلى شوكان ولايدركه وظل على هذا أياما إلى أن وجد ميتا بين القريتين من الجوع فاشتق اليمنيون منه مثلا لمن يفشل في تحقيق أمر ولا ينجح في تحقيق غيره لتسرعه أو لسوء تقديره للمسافة : فلان مثل كلب شوكان وراسه.
وفي قصيدته (مراة السوافي) يقول :
(سواسوا) الكل كما
أوصتك (بنت المقدشي)
سواسوا: إشارة إلى قول الشاعرة الشعبية غزال المقدشية.
سواسوا ياعباد الله متساوية
ماحد ولد حر والثاني ولد جاريه
وفي قصيدة (حقيقة حال) يقول :
كلهم أغلقوا بوجهي ، خذيني
لاتقولي – كما يقولون – (فرغي)
فرغي :كلمة ازدراء وتعال على العاطل الذي يشغل فراغه بما لايعنيه وهي مفردة شعبية تشبه التصغير في الفصحى وصلتها بالفصحى من حيث الفراغ إذ يوصف الخالي من الهم فارغ القلب.
وفي قصيدة (وصول) يقول:
اتحتك ياسبيطة قرن ثور
قرون الدهر فوقي أين قرني
وقرن الثور: من الخرافات الشعبية أن الأرض مركبة على قرن ثور يحفظ انبساطها من التمايل وعندما ينطح الثور بقرنه تقوم القيامة.
وفي قصيدة (سيؤون .. تورق من قلب الصاعقة) يقول:
قبل : (قتيل الما ولا قتيل حرقة الظما)
قتيل الما: تضمين مثل يمني ، نصه الحرفي هكذا: (قتيل الماء ولا قتيل الظما).
وفي الديوان الحادي عشر (جواب العصور) وفي القصيدة التي تحمل اسم الديوان يقول:
لا أرى (الشرشف والعقد) على
قامة (العسبان) مدعاة اعتجابي
والعسبان : مفردها عسيب وهو خباء حُنجر الرجل في اليمن وعمان، وهو منبت في الحزام ويجمع اليمنيون عسيب على عسوب والأصح عسبان أو عسب على وزن كثبان وكثب والشرشف والعقد من ملابس النساء وزينتهن في اليمن.
(ربيعة الشتاء) في هذه القصيدة يقول:
وذكريات ضحاكات كما
حكي (الخفنجي) عن (علي عبطلي)
والخفنجي : هو علي بن حسن الخفنجي شاعر شعبي تفكهي في آخر القرن السادس عشر كان يتغزل بغلام اسمه الفني: علي عبطلي وكان غزله لايخلو من تندر وإضحاك وقد كان الاستاذ رحمه الله دائما يردد قوله:
هندست طول الليل حتى
أجي وسعي المرء شتى
إن قد حفظت البا من التا
كلا يصلي كيفما اشتى
فلا تقل هذا يبرفع
إن قد قبعت أربع في اربع
لا الوعظ منه فيك ينفع
كلا يصلي كيفما اشتى
كما الصلاة في الأصل لله
والسر حسن الظن في الله
وخل خلق الله على الله
كلا يصل كيفما اشتى
يقول:
وهنا أبت مثل سرب الصبايا
في ضحى العيد منشدا (ياهزلَي)
ياهزلي: هذا هو افتتاح أغنيات صبايا العيد في بعض المدن اليمنية إذ يبدأن بهذا الصوت بالتجاوب :
هزلي ياهزلي
قد قالت عسلي
لا بيت البلبلي
خذني لاتخلي
وقد تضاف إلى هذا الافتتاح مقاطع تستحدثها الظروف (سباحة على ريشة البرق) في هذه القصيدة يقول البردوني:
أي أزواج أمي الآن عمي
كم ستقضي يابني ديون الحفاده
هل أعيد الذي يقول المغني
عن تناجي (عز الهدى) و (زباده)
فأزواج أمي في البيت الأول تشير إلى أن الصنعائيون كانوا يقولون عند ذهاب حاكم ومجيء غيره: (من تزوج أمنا كان عمنا) كناية عن الرضا وعن عدم الفرق بين الذاهب والآتي وأما (عز الهدى) في البيت الثاني فهو من ابناء الطبقات العليا وقد وقع في عشق (زبادة) إحدى بنات الطبقات الدنيا فقيلت في هذا العشق أغاني شعبيه كثيرة مثل هذا.
عز الهدى قالوا عشق زبادة
اليوم بنت الصبل بيت ساده
وفي البيت الذي يلي هذين البيتين يشير إلى القعادة: وهي السرير الذي يسميه المصريون المرتبة والشاميون التخت واليمنيون القعادة بقوله:
أو أغني قتل (اليدومي) ينادي
وعلى بنته تنوح (القعاده)
وفي البيت الذي يلي هذا البيت يقول:
قلت جهرا: (سلمان أدرى بسعد)
مثلا من طرافة وتلاده
(سلمان أدرى بسعد) : اشترك سعد وسلمان في قتل رجل وابنته يسمى اليدومي فاعترف سلمان بالجريمة وأنكر سعد وهو المباشر فقال الصنعائيون: (سلمان أدرى بسعد أحسن) أي أن شهادته حجة، وصار هذا القول مثلا على كل من يعرف أكثر من غيره.
وأما آخر ديوان من دواوين البردوني وهو (رجعة الحكيم ابن زايد) والذي يوحي اسمه بتأثر صاحبه بالثقافة الشعبية فالحكيم ابن زايد يعتبر من أرغد مواسم الثقافة الشعبية وأكثرها عطاء وفي القصيدة التي تحمل اسم الديوان نلاحظ في هذا البيت كيف أشار البردوني إلى السبع في قوله:
هل حلت السبع هنا أو هنا؟
سل وردة عنهن أو سل هدى
والسبع عند الحكيم ابن زايد هي السبع الأخيرة من مارس فإذا أمطرت دلت على رخاء العام، وإذا امحلت كان عام البؤس ومن أقاويله في هذا «أينما حلت السبع حليت»
وفي نفس القصيدة يقول في هذا البيت:
يامنكثيات ابنتي «بدرة»
عادت وسموا عودها احمدا
يامنكثيات: من حكايات الحكيم : أن ابنته (بدرة) هربت من قرية منكث مع عشيقها فتردت الإشاعة بهذا، فقال الحكيم هذا الشعر يقول علي بن زايد
ياويح قلبه وعينه
بالله يابيض منكث
كثر الكلام بطلينه
حلفت ياراس بدره
لابد ماتبصرينه
ووفى بقسمه فذبح ابنته ومن الجائز أن القصة من وحي البيت لأن اقاويله كانت تنشأ عن قصة أو توحي بنسجها.
وفي نفس القصيدة أيضا يقول في هذا البيت:
من ذا دعا؟ من بردت كفه
سيدفئ (التنور) والمرقدا
(من بردت كفه أدفأ بيته) هذه خلاصة أقاويل الحكيم في الدعوة إلى التبكير بالعمل.
ويقول في هذا البيت من نفس القصيدة:
قال (رداع) : قلت في ليلة
أمسيت لصا حالفا مكمدا
قلت في ليلة : قيل أن الحكيم خرج من بيته يبحث عن حبوب لطعام العشاء ولما رجع خائبا أختبا في زاوية يتسمع منها أقاويل زوجاته الثلاث فقالت الأولى ماحصل على قرض فذهب يسرق، وقالت الثانية: إنه تاخر بسبب اجتماع القرية لأداء القسم على الوفاء بالثأر وقالت

ف موعدها

ب الضوراني

بل الشعير التي تزداد تألقاً وتوهجاً كلما غمرتها اشعة الشمس انفرجت عنها هامات واكمة جبال حراز التي لا تلبث تتلاشى كفقاقيع صابون كلما حجبتها سحب ركامية في أفق ينذر بمطر وشيك.

ما ابشع طريق الحيمتين وجبال بني مطر وتفاقم أخطارها ومفاجاتها جراء تدافع وتدفق قاطرات الغاز والديزل التي تمرق عادة في المنعطفات والملفات الحلزونية والأروان الملتوية في تهور وجنون يفوق جنون وتهور الأبقار الأسكتلندية.. الطريق أمامنا لا تزال شاقة وعرة نائية تزداد وعورة كلما أوغلنا وانحدرنا باتجاه منطقة الشلال واقتربنا رويداً من مديرية خميس بني سعد الغاصة بمشاتل المانجو واشجار الموز والكمثرى ومناحل العسل تحف بها أسفل الوادي.. خرير مياه الشلال المنحدرة من السفوح القريبة رقراقاً كالق ازلي يخامرنا ونحن ننحدر باتجاه منطقة الشلال، ثمة شعور غريب بوحشة جاثمة شاملة وغربة شائعة لمدينة غريبة وأناس غرباء.. فيما تولتنا لوعة سرمدية دفينة لأقارب ودعناهم لتوناً وسط ضوضاء وضجيج عاصمة لا ترحم.

ما أروع المشهد ، منظر باب الناقة برز أمامنا في أفق غشته سحابة ترابية كثيفة كادت تفقدنا الرؤية عن كثب داخل جبل خرافي انشق على هيئة مغارة مغولية قديمة فاستقرئ في ثواني مواقف وصمود وملاحم قواتنا المسلحة الباسلة، وتصديهم واستبسالهم دفاعاً عن الثورة ومكاسبها وارساء النظام الجمهوري.

في الأفق وسط سهول مترامية وبطون أودية وقفار نائية برزت أمامنا معالم مدينة باجل كاطلال وبقايا آثار حضارة قديمة. المدينة كعهدها ترزح تحت وطأة تقادم متراكم بيد لم تطرأ عليها رياح التغيير أو أي نوع من التجديد ومظاهر المدنية.. الناس هنا متعبون، منهكون، خائرو القوى، يمارسون أعمالهم التقليدية بطريقة بدائية، ولا تخلو مدينة باجل كعادتها من تداعيات واختناقات مرورية نتيجة تفاقم وتراكم الدراجات النارية وباصات الأجرة المتداعية المتهالكة.

ونحن نقترب أكثر شوقاً ولهفة صوب تهامة التي برزت معالمها وأطلالها جلية في أفق الناقة برز أمامنا في أفق غشته سحابة ترابية كثيفة كادت تفقدنا الرؤية ونحن نجوب أكثر استرخاءً وتداعياً أرصفة وشوارع تهامة التقليدية يتولانا نوع من غربة وشيكة شاملة داخل مدينة غريبة وقوم غرباء فيما لم يتخلص ثلاثتنا من أوجاع العاصمة وفراق الأحباب.

د.جابر عصفور: تواصلنا مع البارودي يشعرنا بالحرية والعدالة وكل القيم النبيلة التي دافع عنها